القسم الرابع

العالم الإسلامى محاولات يائسة

- في تشخيص الحالة
- اعلان القاهرة الإسلامى
- علماء السلطة وتسلط الجهلاء

في تشخيص حالة العالم الإسلامي

لم يكن المؤتمر الإسلامى الكبير الذى انعقد فى القاهرة فى عام ١٩٩٢ مؤتمراً عادياً . ومن الممكن أن نعتبره ـ دون تجاوز ـ نقطة انطلاق جديدة فى العمل الإسلامى بمعناه الشامل : جغرافيا ، وسياسياً ، وفكرياً ـ فليس سهلاً أن يلتقى علماء المسلمين من ١٠٠ دولة ليفكروا معاً ويناقشوا ما صار إليه حالهم ، فى زمن يجرى فيه تغيير تاريخ وجغرافيا كوكب الأرض ولذلك ساد بين اعضائه احساس بأنه فرصة نادرة ، وقد تكون فرصة أخيرة ، لبحث كيفية انقاذ ما يمكن انقاذه .

وطول أيام المؤتمر الكبير سيطر على الجميع شعور قوى بالخطر ، فالعالم الإسلامى بمقياس المساحة والسكان عالم كبير ، ولكنه صغير جداً ، وغائب ، بمقياس القوة والتأثير فى شئون العالم أو حتى فى شئون حاضره ومستقبله ، وإن كانت لا تنقصه عوامل القوة ، إلا أنها قوة خاملة ومعطلة لأسباب كثيرة . كان الخطر الماثل ان العالم يعاد تقسيمه ، فتختفى فيه دول ، وتظهر دول أخرى ، وتنتهى صراعات وتنشأ صراعات جديدة ، والدول الكبرى تتجه إلى مزيد من القوة من خلال إنشاء كيانات كبيرة سياسية واقتصادية ، بينما يزداد العالم الإسلامى انعزالاً وضعفاً ، ويفقد يوماً بعد يوم قدرته على التأثير فى السياسة الدولية وفى خرائط العالم الجديد التى يعاد رسمها ، وتحديد مواقع القوة والانكسار فيها يجرى اعدادها فى غيبة العالم

الإسلامى كله ، بل أن مستقبل العالم الإسلامى تتم صياغته على أيدى من يملكون القوة ، وهم جميعاً من خارجه . . ثم هناك مآس جفت الدموع بكاء من أجلها، ابتداء من العذاب والتشريد الذى يلاقيه الفلسطينيون من الاحتلال الإسرائيلى ، إلى جرائم الاغتصاب المنظم للمسلمات من بنات البوسنة فى معسكرات اعدها الصرب، لذلك بعد أن تفتق ذهنهم عن وسيلة يعجز الشيطان نفسه عن الوصول إليها ، هى أن يكرهوا نساء المسلمين على أن يحملن فى أرحامهن أجنة صربية ، وبذلك ينتهى شعب البوسنة من الوجود وينتهى المسلمون فى هذه المنطقة من البلقان . . وما من صحيفة أو مجلة أمريكية أو أوروبية إلا وتخصص كل يوم صفحات لهذه الجريمة البشعة التى تضاءلت بجانبها جرائم الصرب الأخرى من قتل الرجال المسلمين وتعذيبهم وتشريدهم وحرق بيوتهم . . يضاف إلى القائمة ما يلاقيه المسلمون فى الهند ، وبورما ، بل وفى دول أوروبا من اضطهاد . . وفوق كل هذا العذاب يأتى الخلاف بين الدول الإسلامية ليبدد ما تبقى من طاقاتها ويحول اهتمامها من التوجه إلى أعدائها إلى التوجه إلى دول اسلامية لتناصبها العداء ، ثم يزداد الأسى مع ما وصل إليه الحال فى دول إسلامية نتيجة لخلافات أبناء البلد الواحد وليس أقسى على النفس من الخراب الذى يمكن أن تصل إليه أفغانستان .

فى تشخيص الحال الإسلامية كانت أصوات المتشائمين أعلى وأكثر عدداً، حتى قيل ـ بحق ـ أن العالم الإسلامى إذا لم يتدارك أمره فسوف يفقد بعد ذلك كل قدرة على الفعل ، ولن يتبقى له فى التاريخ إلا الماضى ليعيش على أحلام المجد القديم الذى انتهى منذ قرون .

بينما تظل دول العالم الإسلامى فى الحاضر تعيش مع التخلف بكل صوره وتضيع منها فرصة اللحاق بالعصر ، بعد أن فقدت فى الماضى فرصة

المشاركة فى الثورتين الصناعيتين اللتين غيرتا وجه الحياة على الأرض، وتفقد الآن عناصر القوة والثروة التى فى أيديها لتظل تستورد غذاءها ودواءها . . وسلاحها الذى تريد أن تحارب أعداءها .

فى تشخيص الحالة الإسلامية أيضاً كان العجب من جانب العلماء أن تظل هذه الأمة فى تناقضات تدل على غياب العقل ، وإلا فكيف تتمسك أمة بكتاب منزل من الله يدعوهم إلى الوحدة والتعاون بينها لا ترى فى واقعهم إلا التنافر والتمزق ، وكيف يكون تعامل وتعاون الدول الإسلامية مع كل دول العالم كبيراً فيما عدا التعاون فيما بينها فيأتى فى آخر قائمة كل منها ، وكيف يتحدثون عن دينهم الذى يدعوا إلى السماحة وفى بلادهم الإرهاب ، أو يقولون أن دينهم دين محبة ويظهر فيهم التعصب ، ويتحدثون عن ضرورة توظيف ثرواتهم لصالح شعوبهم ويتركون هذه الثروات نهبا للاطماع من كل جانب .

ماذا ينقص العالم الإسلامى ليستعيد زمام المبادرة ويعود مؤثراً فى صياغة مستقبله ؟

فى هذا الاتجاه طرحت أفكار كثيرة : كان أولها أن العالم الإسلامى يحتاج - قبل أى شىء آخر - إلى اجراء سلسلة من المصالحات ، مصالحة بين الحكومات فى الدول الإسلامية المتنازعة ، ومصالحة ثانية بين الحكومات وشعوبها بمزيد من المشاركة والشورى واحترام حقوق الإنسان، ثم مصالحة ثالثة بين الحكومات والتيار الإسلامى المعتدل والرشيد ، مع التشدد فى إدانة وبتر كل ممارسات العنف والإرهاب بإسم الإسلام ، لأن هذا التيار الإرهابى الدخيل هو الذى يشوه صورة الإسلام فى العالم ، ويسىء إليه ، ويعطى أعداء الإسلام المبرر لمحاربة الإسلام ذاته والإفتراء عليه، وتقديمه على أنه دين لايقوم إلا بالعدوان وسفك الدماء واغتيال الخصوم . . !

وجاء الدكتور عبد الصبور شاهين ليضيف إلى الهموم هماً جديداً حين أفاض فى تحليل ظاهرة تحول الماركسيين القدامى ، إلى معسكر الإسلام ، بعد انهيار معسكرهم ـ ليواصلوا باسم الإسلام وتحت لواء مبادئه ، نفس أهدافهم القديمة ، باشعال الصراع بين المسلمين ، وتشجيع الفوضى فى المعسكر الإسلامى ، واستخدام أساليب الإثارة والتهييج لماركسية التقليدية لزيادة حدة الخلافات والمعارك الداخلية، لكى يجدوا الفرصة مهيأة لهم لينفذوا ويسيطروا ويحكموا . وهم قادرون على تغيير جلدهم والتلون بكل لون فى سبيل تحقيق أهدافهم الخبيثة . . وهذا موضوع يحتاج إلى وقفة خاصة لكن قضايا وشجون العالم الإسلامى أكبر من أن يتسع لها حديث واحد .

ولقد كان الجهد وراء نجاح هذا المؤتمر كبيراً ، من فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر ، والدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف ، والدكتور عبد الصبور مرزوق الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكل العاملين فى المجلس ، وكان هذا الجهد موضع إشادة رؤساء الوفود فى كلماتهم التى أجمعوا فيها على اعتبار هذا المؤتمر مؤتمراً تاريخياً .

واذا كانت العادة ان يقال ان المؤتمرات لا تفيد ، فقد رأيت ـ هذه المرة ـ انها تفيد ، على الاقل لكى يلتقى اصحاب الهم الواحد معا ، ويتعرفوا بعضهم على بعض ، ويتبادلوا الشكوى بحثاً عن طريق للخلاص . . لو ان هذه المؤتمرات استطاعت تكوين رأى عام ايجابى بين قادة المسلمين، ووصلت بهم إلى حالة « استبصار» بقضاياهم ودورهم . . فان هذا فى ذاته نجاح كبير .

إعلان القاهرة الإسلامى

منذ اللحظة الأولى للمؤتمر الإسلامى الكبير الذى عقد فى القاهرة مؤخراً، واحتشد فيه أكثر من ٢٥٠ من علماء ومفكرى الإسلام ، كانت القضية المسيطرة على فكر ومناقشات الجميع هى الخطورة التى وصلت إليها ظاهرة الإرهاب باسم الإسلام ، وفى نهاية المؤتمر تبلورت المخاوف والآراء فى بيان هو الأول من نوعه صدر بالإجماع وأطلق عليه « إعلان القاهرة » وتضمن ثلاثة محاور رئيسية أولها إعادة تأكيد ما هو معروف عن الإسلام من سماحة واحترام لسائر الأديان السماوية ، ورفضه للعنف بكل أشكاله كوسيلة لفرض الرأى .

والمحور الثانى فى البيان هو تبرئة الإسلام من المؤامرة الجديدة عليه التى تتمثل فى فكر الإرهاب وسلوك جماعاته ، إذ لايمكن أن يرضى الإسلام عن جرائم إزهاق الأرواح، وترويع الأمنين، وإشاعة الرعب فى بلاد المسلمين مهما تكن الغاية نبيلة ، ذلك لأن الإسلام لايفصل بين الوسائل والغايات ، ولايمكن أن تكون وسيلة منكرة مؤدية إلى غاية شريفة ، وكان المحور الثالث فى البيان هو تنبيه العالم كله إلى أن ما يحدث من جرائم ليس إلا مؤامرة هدفها الخبيث تصوير الإسلام أمام العالم على أنه دين قتل وسفك دماء، وأنه يحمل فى طبيعته العنف والإيذاء، وهذه الصورة لاتفيد إلا أعداء الإسلام التقليديين والجدد .

وهناك ملاحظات تستحق التأمل :

أولاً : أن العالم الإسلامى يعيش الآن ، بين تخلف يحاول التخلص منه ، ونهضة يسعى إلى تحقيقها ، وهناك قوى ودول لها مصلحة فى تفجير العالم الإسلامى من الداخل، سواء باختراقه بأفكار يمكن أن تلتبس بالأفكار الإسلامية ولكنها مع الوقت تبعد أصحابها عن الإسلام الصحيح حتى يصبحوا أعداء للإسلام وهم يظنون أنهم أشد المخلصين له . فليس فى الإسلام ما يعطى لفرد أو لجماعة رخصة انتزاع اختصاص الحاكم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واستخدام القوة والسلاح وليس فى الإسلام ما يعطى بعض العصابات الحق فى اقتحام خصوصيات الناس ، بما يمثله من خطر اجتماعى على الحرية ، ولم يقصر العلماء فى أداء واجبهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى رأسهم علماء الأزهر الشريف ـ أما الذين يرون فى دعوة الإسلام دعوة للفوضى ، فإنهم يجهلون، أو يتجاهلون، أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية لايجب أن يتركه المجتمع كله، وليس فرضاً على كل مسلم بذاته ، وهو اختصاص الحكام والعلماء ، وتحكمه قاعدة أن الضرر الأكبر يدفع بالضرر الأصغر ، وأنه إذا أدت ممارسته إلى جرائم أو وقوع منكر أكبر وجب تركها .

ثانياً : أن هناك محاولات قديمة منظمة ومقصودة ضمن مخططات دول كثيرة للإساءة إلى الإسلام ، سواء فى الإعلام ، . أو الآدب أو البحوث ذات الصيغة العلمية فى ظاهرها ، وحتى من خلال الكتب المدرسية تصور اتباع الإسلام على أنهم عصابات من الإرهابيين ، والغوغاء العطشى للدماء ، كما أن هناك اجتهادات فلسفية ونظرية فى الغرب تقدم الإسلام كأيديولوجية للعنف والهمجية البدائية ، والأكثر من ذلك ـ كما سبق أن نبه الدكتور إدوارد سعيد ـ فإن الإسلام يتعرض لعملية منظمة من التشويه فى أوروبا رغم وجود

شخصيات ذات خبرة وتجارب مباشرة مع الإسلام مثل جوته ، وفلوبير ، وماسينيون ، فإن معظم فلاسفة التاريخ الكبار من هيجل حتى شبنجلر نظروا إلى الإسلام بكثير من التحقير ، وحتى اليوم لايزال عمر الخيام ، وهارون الرشيد ، والسندباد ، وعلاء الدين، وحاجى بابا ، وشهر زاد ، يتصدرون قائمة الشخصيات الإسلامية التى يعرفها الأوروبيون المتعلمون ، ولم يستطع مفكر مثل كارليل أن يجعل العقل الغربى يتفهم شخصية الرسول ﷺ على حقيقتها ، فضلاً عما يظهر فى الصحافة الغربية وكتابات المتخصصين على السواء من النظر إلى الإسلام على أنه قوة رجعية ، لا تهدد بالعودة إلى القرون الوسطى فقط ، بل تهدد بتدمير النظام الديمقراطى فى العالم الغربى . . لقد أصبح الإسلام ـ كما يقول بعض مفكرى الغرب أنفسهم ـ غطاء سياسياً لأشياء كثيرة غير دينية على الإطلاق ، وهناك خلط متعمد بين التعاليم الأساسية للدين الإسلامى كما وردت فى القرآن الكريم ، وهو كلام الله والذى يمثل الهوية الجوهرية للدين الإسلامى وبين الممارسات الجاهلة، أو المنحرفة، أو المريضة التى تأتى من أقلية فى العالم الإسلامى لها مثيل من المتطرفين والإرهابيين فى الأديان الأخرى . ومع ذلك فإن التركيز فى العالم الغربى يزداد على تيار الإرهاب المتخفى وراء الإسلام ، مع اغفال تيارات إرهابية مماثلة ، بل وأشد عنفاً وفوضوية ، تتفجر فى بلدان كثيرة باسم المسيحية أو اليهودية أو باسم ديانات أخرى غير سماوية (السيخ أقرب مثال) .

ثالثاً : أن الجهود التى يبذلها العلماء المسلمون للتعريف بحقائق وجوهر الإسلام بلغة الغرب أقل بكثير مما ينبغى ، وهذا يدعو إلى ضرورة التعجيل بنشر ترجمة معانى القرآن الكريم ، وإعداد مشروع كبير لترجمة عدد من الكتب التى تساعد على تقديم صورة حقيقية للإسلام ، كما يدعو ذلك إلى

أن تتكاتف الدول الإسلامية لإنشاء مراكز ثقافية إسلامية جديدة فى أوروبا والولايات المتحدة . للإعلام بحقائق الإسلام ومواجهة المؤامرة عليه بما يناسب العقلية الغربية ، وإذا كانت هناك مراكز إسلامية الآن فى بعض المدن الكبرى فى أوروبا وأمريكا، فإنها تحتاج إلى دعم كبير وإعادة نظر فى أساليب العمل لتلائم العصر ، وعندنا ـ كما قال وزير الأوقاف الجزائرى لساسى العامورى ـ مؤسسات إسلامية قوية كالأزهر الشريف يمكنها عمل الكثير فى هذا المجال ، ليعرف العالم أن ظاهرة الغلو فى الإسلام ـ كما فى غيره من الأديان ـ ليست إلا ظاهرة مرضية نتيجة العقم فى التفكير ، وإذا كانت المنظومة التعليمية فى العالم الإسلامى تحتاج إلى تغيير جذرى لتكون أساساً لبناء التفكير الإسلامى الصحيح ، ولتحصين المسلمين ضد الأفكار الغربية التى تعرض بخبث وبراعة على أنها هى الإسلام ، ليس فقط فى العالم غير الإسلامى ، بل أيضاً فى داخل العالم الإسلامى ذاته وتجد إقبالاً من نوعية خاصة من الشباب يجذبها كل ماهو غريب فى الفكر وغير مألوف . فإن الأمر يقتضى عملاً كبيراً ـ كما قال وزير الأوقاف السورى عبد المجيد الطرابلسى ـ لعلاج الواقع المؤلم وهو أن علماء الإسلام أنفسهم مختلفون فى الفروع ، وقد نجحت وزارة الأوقاف المصرية فى جمعهم فى هذا المؤتمر من جميع أنحاء العالم وهم محتاجون إلى تكرار اللقاء، لكى يتقاربوا بأفكارهم وتذوب خلافاتهم ، ولابد ـ كما قال وزير الأوقاف المغربى عبد الكريم العلوى ـ من أن يتفرغ صفوة من علماء النفس والإجتماع والجريمة لدراسة ظاهرة العنف بإسم الإسلام، وكشف أسبابها الممتدة فى عمق الواقع الاجتماعى، والاقتصادى والسياسى، والنفسى فى العالم الإسلامى. وقد يكون عذرنا ـ كما قال مدير المركز الإسلامى فى لندن ـ أن ظاهرة الإرهاب أصبحت ظاهرة عالمية ، لكن الإعلام الغربى يعرض أحداث الإرهاب فى لندن وباريس ونيويورك وبون وكأنها أمور عادية، ويعرض ما هو أقل منها

مما يحدث فى مصر أو تونس أو الجزائر على أنه نهاية هذا العالم الإسلامى ، ومن هنا جاء إعلان القاهرة ـ لأنها بلد الأزهر الشريف ـ ليسجل بأعلى صوت ، أن هذا الإرهاب ليس من الإسلام ، ولكنه حرب معلنة عليه ، ومؤامرة ضده . . وأن الإسلام برىء بإجماع علماء الأمة من هذه الجرائم التى ترتكب باسمه . . وعسى أن تصل الرسالة .

وان كان هذا الاعلان خطوة بالغة الاهمية ، لانه فى حقيقته رسالة لها قوتها ومغزاها . . مواجهة إلى العالم الغربى بالذات ، لكى يفهم ، ويتفهم ، حقيقة الاسلام ، ولا يستمر فى الصاق التهم به ، ولا يحكم على الاسلام بسلوك بعض المسلمين الضالين او الشاردين . . فهو موجه ايضاً الى المسلمين ، والشباب منهم خاصة ، ولذلك اتمنى لو أصبح جزءا من الكتب الدراسية فى كل الدول الاسلامية ، لكى ينشأ كل شاب مسلم ، فى كل بلد على معرفة حقيقة الاسلام ، ومحصنا ضد حملات الزيف والتشويه والتضليل التى تتبع اساليب ماكرة لاستلاب عقول الشباب .

علماء السلطة .. وتسلط الجهلاء !

فى الجلسة الختامية للمؤتمر الإسلامى الكبير الذى نظمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، رأس الجلسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، وفى كلمة قصيرة فجر قضية أعادت حرارة الحوار من جديد بين علماء المسلمين من مائة دولة ، عن المحاولة الخبيثة التى يقوم بها دعاة الإرهاب ومن يساندونهم بالفكر ، بإطلاق صفة «علماء السلطة» على رجال الدين المؤهلين لرسالتهم بالدراسة والخبرة فى مصر وفى العالم الإسلامى ، والذين قاموا ويقومون بواجبهم فى شرح أحكام الإسلام الصحيحة ، وهم أكثر الناس ادراكاً لثقل الأمانة التى يحملونها ، ويعلمون أن الله هو الذى سيسألهم عنها يوم الحساب . .

أما المحاولة الخبيثة فهدفها عزل الجماهير عن الإسلام الصحيح لتخلو الساحة للمخربين من كل نوع ، ولابد أن ينضم المثقفون إلى هؤلاء العلماء ليكشفوا المؤامرة ، ولاتضيرهم قالة السوء إذا مست أشخاصهم ، لأن الأشخاص زائلون ، ولكن لابد أن يغضبوا إذا وجدوا أن المؤامرة تسىء إلى الإسلام ذاته .

وانتقلت القضية من المنصة إلى العلماء ومسئولى الدعوة فى العالم . . من الذى صك هذه التسمية . . ؟ ولماذا . . ؟ وماذا يراد من ورائها . . ؟ وهل يمكن أن يكون المروجون لها من أنصار الإسلام أو من المتآمرين عليه . . ؟

مثل هذا الموضوع يجب أن يبدأ بدايته الصحيحة بمنهج البحث الجنائى ـ بتحديد من الذى يستفيد من شائعة وصف « علماء السلطة » على رجال الدين المتخصصين ، والذين أفنوا أعمارهم فى معرفة أسرار ودقائق القرآن الكريم وتفسيره ، والحديث الشريف وعلومه، والتاريخ الإسلامى وأحداثه، واللغة العربية وأسرارها ، ووقفوا جهدهم على الدعوة للإسلام المعتدل كما نزل به الوحى ، وكشف جوانب الغلو ، والانحراف ، والخطأ فى الفهم ، وكشف الجرائم التى ترتكب باسم الإسلام وتسىء إليه وإلى أهله.

القضية تحتاج إلى مناقشة علنية وواسعة ، لأن الصوت المعتدل المعبر عن الصدق ، والملتزم حقاً بروح الإسلام ، هذا الصوت لايلفت الانتباه عادة مثلما يفعل الصوت الشاذ ، وهناك صنف من الناس يبحثون عن الرأى الغريب ، وينجذبون إلى كل ماهو خارج عن القاعدة ، ومهما يكن فى هذه الظاهرة من انحراف عن الصراط المستقيم ، فإننا يجب أن نحذر من الوقوع فى شرك الظن ومداومة الحديث عنها بأن هذا الشذوذ هو القاعدة .

القضية أن لدينا قلعة للإسلام هى الأزهر ، ورجال دين مؤهلين هم رجاله ، وكتبا معتمدة لمن أراد أن يعرف حقائق الإسلام ، ولكن على الجانب الآخر هناك مجموعة أو مجموعات تريد أن تنصب نفسها فى موقع الوصاية على الإسلام ، وتفرض مفاهيمها الغريبة والمنحرفة ، وتصور الآراء الضعيفة على أنها الأحق بالصدارة ، وأن الأقوال المشكوك فى صحتها على انها هى التى يجب أن تكون أساس اليقين الدينى عندنا ، وأن الاجتهادات التى ضلت وأخطأت طريق الصواب يجب أن تكون لها القيادة ، وأخطر من ذلك أن هناك نوعيات جديدة من الدعاة الأدعياء غير مؤهلين، ولم يدرسوا علوم الدين دراسة منظمة ، يتصدون الآن للفتوى بجرأة غريبة لايقدر عليها

من فى قلبه ذرة من خشية الله ، ويفرضون الحلال والحرام كما يرونه ، ولكى يجدوا لأنفسهم مكاناً فإنهم يبدأون بإثارة الشك حول الحماة الحقيقيين للإسلام ، والحملة على الأزهر ورجاله وجهوده ، وعلى مؤلفات كبار علمائه، لا لشيء إلا لأن الأزهر بقياداته ، وتاريخه ، وحرصه على حماية الفكر الإسلامى من الإنحراف هو العقبة أمام أطماع هؤلاء الشيوخ المزيفين الذين جعلوا أنفسهم أئمة ، ومفتين ، ولكى يعطوا مشروعية لمواقعهم التى اغتصبوها، فإنهم يهاجمون أصحاب العلم الإسلامى الصحيح . . وليس ذلك غريباً . . اسأل المرأة الساقطة عن إمرأة شريفة فماذا تتوقع أن تقول لك؟! . . واسال «حلاق الصحة » عن رأيه فى أساتذة الطب الكبار ، واسال الجهلاء عن موقفهم من العلماء . . طبيعى أن يقولوا فيهم كذبا ، هو فى حقيقته ما ينطبق على القائلين أنفسهم وواقعهم .

لا نعفى الأزهر من أوجه نقص . ولكن ليست كل أموره مما يستحق النقد . . وفرق بين نقد الغيورين على الأزهر ونقد الساعين إلى هدمه . وقد نطالب بزيادة فاعليته فى الحياة الدينية فى مصر وفى العالم الإسلامى بإعادة هيئة كبار العلماء ، أو بأن يكون اختيار شيخ الأزهر بالانتخاب، أو بإعادة الحياة إلى مجمع البحوث الإسلامية ليحسم قضايا معلقة بقلق الناس طول انتظارهم للرأى السديد فيها ، وهى أمور تمس حياتهم . وإذا كان هناك ما يستحق النقد فى مناهج وأساليب أعداد الدعاة فى الأزهر ، فهذا كله طبيعى، ولكن يجب أن يكون النقد فى إطار الرغبة فى دعم الأزهر ، وليس باتخاذ النقد شعاراً للتسلل والتشكيك فيه كمؤسسة هى خط الدفاع الأول عن الإسلام فى الحروب المعلنة والخفية عليه ، ولأننا نسمح بالنقد ـ دون قيد ـ فإننا ينبغى أن نتصدى وبقوة لمحاولات هدم الأزهر حتى لاتجد فرصتها لتحقيق أهدافها الشريرة ، لأن السكوت جريمة ، والخطر على الدين وعلينا ـ مع السكوت ـ سيكون فوق قدرتنا على التصور الآن وفوق قدرتنا على تحمله فى المستقبل .

ان الذين يهاجمون علماء الإسلام بسلاحهم الخبيث بوصفهم « علماء السلطة » طائفتان ، الطائفة الأولى : هى الجماعات التى تريد أن تفرض الكتب الشاذة التى يروجون لها ، والمفاهيم الغريبة التى يعلمونها للسذج ، والأحاديث الضعيفة التى يستندون إليها ، ولأن هؤلاء ليست لديهم مؤهلات الفقهاء والعلماء ، ولايمكنهم طعن علماء الأزهر فى علمهم ، لأنهم أكثر الناس علماً بالإسلام ، فليس أمامهم إلا التشكيك فى النيات والحكم على الضمائر والادعاء كذباً بأن علماء الأزهر يقولون ما يقولونه ارضاء للسلطة ، ونحن نعلم أن علماء الأزهر ، بعد كل مادرسوه ، لايمكن أن يبيعوا ضمائرهم ، أو يخونوا أمانة العالم الذى يعرفون قدرته وعدله وهم ظالمون . . ولأن علماء الأزهر هم القادرون على كشف الزيف والمغالطات فى مقولات المتطرفين، أصبح الأزهر ورجاله الهدف الأول للحرب التى يعلنها « علماء آخر الزمان » !

وعلماء آخر الزمان هم الذين نبهنا إليهم الرسول ﷺ بحديث مشهور مفاده أن الناس سيتخذون لهم أئمة جهالا ، يفتون فى الدين بغير علم ولابصيرة ، أما الطائفة الثانية من مهاجمى علماء الإسلام ، فهم تجار اثروا من بضاعة مغشوشة ، وجدوا إقبال الناس على الدين فجعلوا أنفسهم رجال دين ، وأصبحوا مثل الباعة الذين يفترشون الأرصفة ببضاعة رخيصة أمام أكبر المحلات ، لاتجد على لسانهم إلا تشكيك الناس فى هذه المحلات الكبرى بما فيها من بضاعة اصيلة لكى تروج بضاعتهم المغشوشة . . وبئس التجارة إدعاء الإيمان والعلم بالإسلام، والتكسب بهذه الوسيلة . .

هكذا نجد تحالف فريقين على الهجوم على الأزهر وعلمائه هما ـ المتطرفون والمرتزقة ـ وبئس ما اختاروا من تجارة سوف يكشف الله زيفها ويحق الحق . . ولو بعد حين . .

عندما نقسم العالم إلى دول متقدمة ودول متخلفة ، لا نكاد نرى من الفروق بين هذه وتلك إلا فى قيمة الناتج القومى هنا وهناك ، ومستوى دخل الفرد ، ودرجة التقدم التكنولوجى ، والابتكار والازدهار العلمى ، ولا نبحث فى العمق ، فيما وراء هذه المظاهر من التقدم المادى ، إلى جذور التقدم ـ أو التخلف ـ المستقرة فى تربة المجتمع ، وهى الثقافة . . لا أقصد الأدب والفنون وحدها ، ولكن أقصد معهما ماهو أعمق وأكثر فاعلية فى سلوك أبناء كل مجتمع . . أقصد القيم (الدينية والأخلاقية والاجتماعية) والعادات ، وكل ما يدخل فى إطار معايير السلوك التى تحكم على أعمال كل فرد ، وتوجه فكره ، وتدفعه للعمل ، أو الكسل .

ويمكن أن ندرك الفرق عندما نرى العامل والموظف فى بلد ينام مبكراً ليستيقظ مبكراً جداً ، قبل طلوع الشمس ، ويجرى كل فرد فى طريقه إلى عمله فى الموعد بالضبط دون تأخير ولو دقيقة واحدة ، ويقضى يومه كله فى العمل ـ من الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساء مع ساعة راحة وغذاء ، ولا يضيع من يوم العمل دقيقة فى غير العمل ، ويكون الرجل محترما اذا كان يعمل بدقة وبسرعة ويحقق الأهداف المحددة له ، وتكون الأخلاق حميدة فى هذا المجتمع اذا كانت هى الصدق (والصدق مفترض فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس فإن كذب سقط ولاتقوم له قائمة) وأداء الواجب ، والمجاملة

لها مجالها ولكن لاتمس حدود العمل وقواعد . فالمجاملة لا تسلب احدا حقه، ولاتعطى احدا ماليس حقه . . مجتمعات منتجة ، ولذلك فإنها تعيش وتتنفس ملتزمة بقيم انتاجية . . كل فرد معتمد على نفسه ، وعلى عمله .

وعلى الجانب الآخر ناس آخرين ، الكسل أهم ما يميزهم ، و«الشطارة فى هذا المجتمع هى الإيهام بأنهم يعملون دون أن يعملوا حقيقة ، ثم يطلبون الجزاء دون عمل ، ويبحثون عن الثروة التى تتحقق بغير جهد (تسقط من السماء) ، تأتى من المجهول (ببركة دعاء الوالدين) . . او تأتى بالشطارة «وتفتيح المخ » بالسرقة ، والاختلاس، والرشوة . . الخ ولو أردنا أن نضع الثقافة المصرية ـ بالمفهوم الشامل الواسع للثقافة ـ فسوف نجدها ثقافة اتكالية ، ويكفى أن نلاحظ ـ كما يشير الدكتور إبراهيم شحاته ـ إلى ما فيها من عناصر تحض على التساهل، بل والتسيب ، ابتداء من المدرسة والجامعة، حيث من تقاليدنا المدرسية والجامعية إلغاء جزء من المقررات ، بدعاوى التيسير والتسهيل (أو الاستسهال أو تملق الكسالى) وابتدعنا نظاماً آخر أعجب هو « الرأفة » بحيث نعطى درجات بدون مقابل لمن لا يستحقها من الطلبة الفاشلين الراسبين لنعودهم على أن الجزاء يمكن أن يكون هبة ، أو صدقة ، أو منحة بلا مقابل ، فليس غريباً أن يظل الفرد طول حياته يطلب « الرأفة » بأن يأخذ علاوة وترقية ووظيفة لا يستحقها ، ثم ابتدعنا ماهو أعجب ان الطالب الذى استنفذ جميع فرص الامتحانات وفشل فيها يطالب ويلح ،ويصرخ . . ويضغط إلى أن ترضخ له الجهات المسئولة عن تنفيذ القواعد فيحصل على فرصة أو أكثر إضافية بعد استنفاد جميع الفرص، وهكذا اعتاد الناس المطالبة بخرق القواعد ـ خارج سياق المنطق والقواعد ـ وأدى ذلك إلى عدم احترام المنطق والثقة فى أى قاعدة ، وأصبح يعلو أحياناً

على صوت أصحاب الحقوق اصوات عالية لمن لاحق لهم يطلبون ماليس من حقهم دون ادنى شعور بالخجل .

وتساوى بذلك المجتهد مع الكسلان ، والذكى مع الغبى ، وصاحب الموهبة مع معدوم المواهب . . أهم من ذلك أن الاستثناء صار هو الأقوى والأعم . . وليس غريباً بعد ذلك أن يستمر هذا التفريط والتساهل ، فينعكس على الإنتاج والخدمات ، وينتشر التسامح فى الخطأ ويكون هو الأساس ، ويكون عقاب المخطىء هو الاستثناء ، واحتمال فصل موظف أو عامل مهما ارتكب من أخطاء وانحرافات فى عداد المستحيل . . وعندما تأتى الأعياد ، والمناسبات، حتى زيارة مسئول يحصل العاملون على مكافآت ليست مقابل عمل أو تحقيق أهداف ، وليست مقصورة على من يعمل ويجتهد ويلتزم ، ولكنها للجميع ، يتساوى العامل والعاطل ، وأكثر من ذلك أن المكافآت تصرفها جهات العمل بصرف النظر عن أوضاعها المالية ، ولا يسأل أحد ان كانت هذه الجهة تحقق ربحاً أم خسارة . . تعطى من فائض ما لديها أم تسحب على المكشف وكل ما يهم الجميع أن يأخذ الجميع ويرضوا . ولا يهمهم كيف أخذوا ولانتائجه . . وكل كلام عدا ذلك بدعة وضلالة .

هذه بعض مظاهر الثقافة الإتكالية ، هناك ثقافة راكدة تؤسس مجتمعاً راكداً . . هناك وثقافة حية تؤسس مجتمعاً مليئاً بالحيوية وإذا أردنا التغيير حقيقة ، فليس أمامنا إلا تغيير العقول . . القيم . . طريقة التفكير وأسلوب العمل . . النظرة إلى مفاهيم الحلال والحرام ليدخل فيها معنى أن من يحصل على أجر بدون عمل فهو حرام ، ومن يحصل على درجة أو وظيفة لا يستحقها بجهده أو يحصل على مكافأة أو أجر إضافى دون أن يبذل جهداً إضافياً فهو حرام ، ومن كان مطعمه حرام وملبسه حرام لن يستجيب الله

له، ولن تفتح السماء أبوابها لدعائه، مهما صلى وصام كما علمنا الرسول ﷺ . . وبداية التغيير أن يخرج الكتاب والمثقفون ومن تكرارهم المحل بالشكوى، وفصاحتهم فى التعبير عن الإحباط، ليدوروا فى فلك جديد للعمل لتكون جهودهم من أجل إيجاد رأى عام فى المجتمع بكل فئاته وطوائفه وطبقاته تؤسس عليه إرادة عامة للتغيير ، وتدخل إرادة التغيير فى خلايا عقل كل فرد ، وسلوكه ، وأحكامه على الأفعال والأقوال والأفراد الآخرين . .

ولو تحقق ذلك ـ أو على الأقل لو بدأنا فيه فسوف تتغير كثير من سلبيات المجتمع . . سوف يدرك معظم الناس مثلاً خطورة الوضع السكانى الذى يهدد حياة وأمن الأجيال القادمة ، ويدرك كيف يتكون أمور الوطن مع استمرار زيادة حاجته إلى استيراد الغذاء والاعتماد على المعونات . . وسوف يتغير التعليم من عملية شكلية (بودى أن أقول وهمية) حيث يدخل التلميذ المدرسة لمدة أربع ساعات فى اليوم فى المتوسط (ليفسح المكان لفترة ثانية وأحياناً ثالثة) وتنتهى السلسلة الرديئة بتخريج أنصاف متعلمين لايجدون عملاً وكثير منهم لا يصلحون لعمل لأن التعليم لم يعدهم ولم يؤهلهم ، ولم يكسبهم مهارات حقيقية للعمل ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن التهاون السائد فى الأوضاع التعليمية منذ عشرات السنين قد انتهى بنا إلى انتشار أسوأ أنواع السلوك المعادى للعمل المنتج فى مواقع العمل (إلا من رحم ربى) .

ولو فعلنا ذلك لحققنا ما يشبه المعجزة ونجحنا، واستطعنا ملاحقة الثورة العلمية ، لو ادركنا صدق نصيحة الدكتور إبراهيم شحاته بأن الاستفادة بالثورة العلمية لايتم بحلول بيروقراطية أو بمجرد إنشاء وزارة للبحث العلمى، أو أكاديمية، فإن ذلك لايحقق إلا انشغال الاساتذة المتخصصين

بحضور اللجان والقيام بأعمال إدارية ، سندرك أنه لابد من إعادة بناء مراكز البحث العلمى القائمة ، وإيجاد اتصال دائم ومباشر بينها وبين مراكز البحوث فى الدول المتقدمة . . لأن الحقيقة ـ التى لم نصل إليها حتى الآن ـ هى أن التقدم العلمى لايمكن أن يتحقق فى بلد إلا إذا كان قائماً على نظام تعليمى جيد ينشىء القاعدة العريضة من أجيال العلماء والباحثين الجادين، الذين يعيشون فى عصرهم، والمتابعين لما يجرى فى العالم أولاً بأول ، يقوم هذا التقدم العلمى على أجيال من الأساتذة الذين لديهم القدرة والرغبة والنزاهة ليتفرغوا لبحوثهم ورعاية تلاميذهم .

وليتنا نجيد قراءة فكر الدكتور زكى نجيب محمود حين نبهنا كثيراً دون أن يجد منا استجابة إلى أن العلاقات التى تربط المواطن بالوطن قد تغيرت فى صميمها ، حتى كاد الأمر أن يتحول من كون الأمة أمة واحدة، إلى كونها تجمعاً من أفراد ، كل فرد يسعى إلى الحصول على أكبر نصيب من الغنائم بأقل قدر ممكن من العمل ، ولذلك أصبح السابقون هم أكثر الناس حيلة، وليس أرفعهم ذكاء . . وحين صاح فينا مفكرنا الكبير الراحل : لماذا فقد الفرد إحساسه بالآخرين . ؟ ما الذى غرس ذلك الضلال الذى شوه الرؤية عند كل فرد حتى ليحسب أنه وحده فى هذه الدنيا ، وله أن يحصد الحصاد كله لشخصه وحده ، فإذا كان هناك « آخرون» فإنما هم أدوات تستغل لصالحه . . والنتيجة : هوية تحطمت عناصرها حتى فقد الفرد انتماءه ، وفهما مخطئاً للإنسان أخرجه من مدار العقل إلى عالم اللامعقول ، وثقافة بلا غاية يهدف إليها المبدعون فانعكس هذا التيه على المثقفين ، وتحول استخدام اللغة من أداة توصيل لأفكار ومعان وحقائق محددة، إلى أداة تحدث جعجعة عالية ولا تنقل فكراً ، وبالتالى لاتدفع إلى العمل أو التغيير .

ان علماء الاجتماع يشيرون إلى ما يسمونه « البيئة الثقافية » اللازمة للتغيير

وتحقيق الفاعلية والحيوية والحركة فى المجتمع. وهذه البيئة الثقافية للتغيير والإيجابية والدافعة لكل فرد ليكون منتجاً ، هذه « البيئة الثقافية » لا تهبط من السماء ، ولا تأتى معونات من الآخرين ، ولكنها تتحقق ـ فقط ـ عندما تصبح لدينا بحق « إرادة التغيير » وأقصد: الإرادة السياسية ، والإرادة الشعبية ، وإرادة قادة الرأى، وهم بفضل الله كثيرون عندنا ولكنهم مشغولون بأنفسهم بأكثر من انشغالهم بالوطن وبالمستقبل ، ونداء الواجب يدعوهم الآن ـ فى آخر لحظة ـ ليتحركوا ـ ويعملوا ، قبل أن تضيع فرصة اللحاق بقطار التقدم ، وبعدها لن تسامحهم الأجيال القادمة . ولنضع امامنا قول الله سبحانه وتعالى ، خالقنا ، وخالق قوانين التقدم والرقى الانسانى : ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** ﴾ . وابسط فهم للقول الالهى ان التغيير لا يفرض من اعلى ، ولا من الخارج ، ولكنه يبدأ من الداخل ، من داخل كل فرد دون استثناء ، ومن مجموع الافراد الصالحين يتكون المجتمع الصالح ، والعكس غير صحيح ، والله اعلم .